

الأضرحة بالجزائري خلال العهد العثماني

أ.د/ عبدالقادر دحدوح*

الملخص:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني بناء العديد من الأضرحة، وهي تعد من المعالم الأثرية التي لا تزال باقية إلى يومنا هذا تحتفظ بتخطيطها المعماري والفني، ومن خلال تلك الأمثلة يمكن التعرف على عدة أنماط تخطيطية لهذا النوع من العمائر بالجزائر خلال العهد العثماني، حيث يظهر النمط المربع فوقه قبة، ونمط مستدير فوقه قبة، ونمط مفتوح مشكل من دعائم أو أعمدة فوقها عقود تعلوها قبة، وقد يكون الضريح يتشكل من تقسيمات معمارية إضافية مثل ضريح سيدي عبدالرحمن بمدينة الجزائر الذي يضم مسجدا له مئذنة.

وهي الجوانب التي نود الوقوف عليها في هذه المداخلة، لنوضح الأنماط المعمارية للأضرحة وتراكيب وشواهد القبور بالجزائر خلال العهد العثماني ومقارنتها بما يماثلها في العالم الإسلامي.

كلمات مفتاحية:

أضرحة، القبر، القبة، العمارة.

أ- المفاهيم اللغوية والإصطلاحية للأضرحة:

عرفت عمارة الأضرحة في الإسلام بعدة تسميات ومصطلحات لغوية إلا أن مدلولها واحد، منها ما اشتهرت في مناطق محدودة، ومنها ما انتشر ذكرها في أنحاء عديدة، ولعل من أهم تلك التسميات نذكر الضريح والمشهد والمقام والمزار والتربة والقبّة:

والضريح مأخوذ لغويا من: ضرح الشيء (بفتحتين): قطعه وشقه، وضرح الرجل: دفعه ونحاه، وضرح القبر: حفره، وضرح الثوب: ألقاه، وضريح الشيء (بفتح الصاد وفتحها وسكون الراء)- جمع اضراح-: التباعد والوحشة، والمضطرح (بضم الميم وسكون الصاد): المرمى في ناحية، والضريح يقصد به أيضا: شق في وسط القبر وقيل القبر كله، وقيل هو قبر بلا لحد، ويسمى ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا أو لأنه انضرح عن جانبي القبر فصار في وسطه^(١).

أما بالنسبة للمشهد، فهو من الناحية اللغوية مشتق من مشهد، وشهد المكان: حضره، ومنه شهد الجمعة: إذا أدركها، والشهادة: الإخبار بصحة الشيء عن مشاهدة عيان، والشهيد بمعنى المستشهد: المقتول فقيل لأنه مشهود له بالجنة أو لأنه عند الله حاضر، وللشهادة أيضا معنى آخر يقصد به الحلف والقسم، وحسب ابن منظور (٧١١هـ/١٣١١م) المشهد: المجمع من الناس، ومحضر الناس، ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها، كما وردت الكلمة في القرآن الكريم بمعنى يوم القيامة^(٢)، في قوله تعالى: {وَيَلِّ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ}^(٣).

^١ - ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، تحقيق وتعليق عامر أحمد حيدر، عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥، ج٢، ص٣٠٤. أنظر أيضا: رزق (عاصم محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٠، ص١٧٤. طه (الولي)، المساجد في الإسلام، دار اللام للملابين، ط١، ١٤٠٩/١٩٨٨، ص١٢٦. الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، القباب في العمارة المصرية الإسلامية: القبّة المدفن نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤١٣/١٩٩٣، ص١٧-١٨.

^٢ - ابن منظور (جمال الدين)، المصدر السابق، ج٤، ص٦٣١. أنظر أيضا: عثمان (محمد عبدالستار)، عمارة المشاهد والقباب في العصر الفاطمي، دار القاهرة، ٢٠٠٦، ج٢، ص١٧-١٨.

^٣ - سورة مريم، الآية ٣٧.

وقد شاع هذا المصطلح عند الفاطميين أكثر من غيرهم، فقد دأبوا على بناء مشاهد على قبور المدفونين من آل البيت بقصد تمييزهم عن غيرهم من الموتى، وإحياء لذكراهم وتيسير زيارتهم^(٤).

المقام: اسم لموضع القيام، اخذ من قام يقوم قياما، وقد ورد في التنزيل بمعنى موضع القيام في قوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ}^(٥)، يريد موضع قدميه في الصخرة التي كان يقوم عليها لبناء البيت، ثم توسع فيه فأطلق على ما هو أعم من موضع القيام من محلة الرجل أو مدينته ونحو ذلك، ومن ثم قال الزمخشري في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}^(٦)، انه استعمال خاص استعمل في معنى العموم، يعني انه يستعمل في موضع الإقامة في الجملة... وبعضهم رد كلمة المقام إلى أصل يوناني هو "Mokamo" ومعناه بالعربية قبر.

وقد شاع عند الناس المصطلح بقصد الموضع الذي يوجد فيه ضريح لمن يشتهر بالتقوى والصلاح، استنادا إلى القرآن الكريم بان مثل هؤلاء الرجال الأبرار يرقدون في مقام كريم في هذه الدنيا وفي الآخرة، وكثيرا ما يحرص الناس على الصلاة في داخل المقام التماسا للبركة واليمن من صاحب المقام^(٧).

المزار: يقصد به ذلك المكان الذي فيه قبر لنبي أو شيخ أو عالم له مكانة عند الناس لعلمه وتقواه وورعه، وقد لا يكون في المزار قبر وإنما يرمز المكان إلى واقعة أو حدث له معاني روحية كبيرة في قلوب الناس مرتبطة بالشخصيات الدينية، ومن ثم يبني في المكان مزار يرتاده الناس للزيارة والصلاة وطلب البركة من صاحب الضريح^(٨).

التربة: من ترب الميت أي صار ترابا، ويقصد بها المقبرة، وقد تطور مفهومها في العصر المملوكي لتصبح تطلق على المنشأة الدينية بصفة عامة والخانقاه بصفة خاصة التي عادة ما تلحق بها مقبرة أو قبة دفن^(٩).

القبة: قب الشيء وقببه: أي جمع أطرافه، والجمع قباب وقبب، وبيت مقبب: جعل فوقه قبة^(١٠)، والقبة بناء مستدير ومقوس مجوف يعقد بالأجر ونحوه، وهي أيضا عبارة عن بناء محدودب أشبه بكرة مشطورة من وسطها، أو بناء دائري مقعر من

^٤ - عثمان (محمد عبدالستار)، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١-٢٢.

^٥ - سورة آل عمران، الآية ٩٧.

^٦ - سورة الدخان، الآية ٥١.

^٧ - الولي (طه)، المرجع السابق، ص ١٠٧-١٠٨.

^٨ - نفسه، ص ١٠٩.

^٩ - الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، المرجع السابق، ص ١٤.

^{١٠} - ابن منظور (جمال الدين)، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٥.

الداخل مقبب من الخارج، يتألف من دوران قوس على محور عمودي ليصبح نصف كرة تقريبا، يأخذ مقطعها شكل قوس على محور عمودين ليصبح نصف كرة تقريبا، وتقام مباشرة على فوق مسطح أو ترتفع على رقبة مضلعة أو دائرية أو على حنايا ركنية أو مثلثات ركنية أو مقرنصات لتسهل الانتقال من المربع إلى المثلث ثم إلى الدائرة، وقد تكون القبة كبيرة أو صغيرة أو بيضاوية أو نصف كروية أو بصلية أو مخروطية أو مضلعة، وقد استخدمت القبة في عمارات مختلفة وعلى مر العصور، ولكن تواجدها بكثرة في الأضرحة الإسلامية جعلها تعمم لتصبح تطلق على البناية بأكملها^(١١).

ب-نشأة الأضرحة في الإسلام:

عرف الإنسان البناء فوق قبور الموتى منذ القدم، والآثار الباقية تشهد على ذلك في مناطق عدة، في حضارات فجر التاريخ، وحضارة بلاد الرافدين وفي الحضارة الفرعونية، وغيرها، إلا أنه كان لكل حضارة تقاليد الخاصة بها وطرازها المعماري المميز.

ومن تقاليد العرب خلال تلك الفترة أنهم كانوا يضربون الخيم على قبور موتاهم، ويتلقون التعازي فيها، ثم يقيموا فيها مدة غير محددة اعتقادا منهم بأن الموتى يأنسوا بوجودهم إلى قريبهم، ولما جاء الإسلام استمر هذا التقليد، ولعل أول خيمة أقيمت في الإسلام كانت على قبر أم المؤمنين زينب بنت جحش بعد وفاتها في سنة ٢٠هـ/٦٤١م بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي سنة ٥٣هـ/٦٧٣م قامت عائشة أم المؤمنين بعد وفاة أخيها عبد الرحمن بن ابي بكر بضرب خيمة على قبره، وفي سنة ٩٧هـ/٧١٥م توفي الحسن بن حسن بن علي بن ابي طالب، وضربت زوجته على قبره خيمة وأقامت فيها مدة سنة كاملة^(١٢).

لكن هذا التقليد كان من الصحابة من ينكره، حيث يروى أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما رأى فسطاطا(خيمة) على قبر عبدالرحمن فقال: "أنزعه يا غلام فإنما يظله عمله"، كما يروى أن ابا هريرة أوصى بعدم ضرب الفسطاط على قبره، ومن ثم كره الإمام أحمد ضرب الفسطاط والخيمة على القبور^(١٣).

^{١١} - غالب (عبد الرحيم)، موسوعة العمارة الإسلامية، مطبعة جروس برس، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣٠٩، انظر أيضا: رزق (عاصم محمد)، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

^{١٢} - سيف (علي سعيد)، الأضرحة في اليمن من القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي وحتى نهاية القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي دراسة أثرية معمارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، قسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨، ص ٢٤-٢٥.

^{١٣} - الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، المرجع السابق، ص ٣٤-٣٥.

ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم اختلف الصحابة في موضع دفنه، فمنهم من يقول يدفن مع صحابته بالبيعة، ومن يقول بدفنه في مسجده، والبعض الآخر قال يدفن عند المنبر، ولما علم ابو بكر الصديق رضي الله عنه قال لهم: سمعت رسول الله يقول: {ما مات نبي إلا دفن حيث يقبض}، ومن ثم رفع الفراش الذي توفي عليه النبي ودفن في نفس الموضع داخل بيت عائشة ام المؤمنين، ثم دفن إلى جانبه ابو بكر الصديق، وبنى بعد ذلك الخليفة عمر بن الخطاب جدارا قصيرا في وسط البيت، ودفن إلى جانبهما بعد وفاته، ثم أتم عبد الله بن الزبير الجدار وزاد فيه^(١٤).

وعلى الرغم من التجديدات والإضافات التي عرفها المسجد النبوي الشريف في عهد عمر بن الخطاب(١٧هـ/٦٣٨م) وفي عهد عثمان بن عفان(٢٩هـ/٦٤٩م) إلا انه لم يتعرض لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يدخل إلى حيز المسجد إلا في عهد عمر بن عبدالعزيز وهو والي على المدينة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، وكان جدار الجامع الموالي لبيوت النبي قد أنهدم فاضطر إلى تجديده وتوسيع الجامع من هذه الجهة(٨٨-٩١هـ/٧٠٧-٧١٠م)، وجمع عمر بن عبد العزيز شيوخ المدينة وفقهائها واستشارهم في إدخال قبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى داخل المسجد فلم ينكروا عليه ذلك، ومن ثم صار القبر بداخل المسجد وأحاط عليه حيطانا مرتفعة مستديرة حوله حتى لا يظهر للناس فيفتنوا به ويقعوا في ما كان النبي حذر منه، حيث تروي عائشة ام المؤمنين أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في مرضه قال لها: {لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مسجدا، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنني أخشى أن يتخذ مسجدا}^(١٥).

وفضلا عن هذا الحديث فهناك أحاديث أخرى كثيرة تصب كلها في منع البناء على القبور، من بينها ما رواه مسلم عن جابر قال: {نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصص القبر وان يقعد عليه وان يبنى عليه}، وروى مسلم أيضا عن ابي الهياج الأسدي قال: {قال لي علي بن ابي طالب ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفا إلا سويته}^(١٦).

وكما كره الإسلام البناء على الأضرحة كره أيضا إقامة المزارات واتخاذها أماكن للصلاة، حيث يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال: {ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى

^(١٤) - نفسه، ص ٣٠. انظر أيضا: سيف (علي سعيد)، المرجع السابق، ص ٢٣.

^(١٥) - سيف (علي سعيد)، المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

^(١٦) - نفسه، ص ٣١-٣٢.

الله عليه وسلم فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد، من أدركته الصلاة فليصل وإلا فليمض}، وبلغ عنه أيضا انه سمع بقوم يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها^(١٧).

وعلى الرغم من تأكيد هذه الأحاديث وغيرها منع الإسلام للبناء فوق القبور إلا أن هذا لم يمنع من وجود مثل هذه العمائر على مر التاريخ الإسلامي، لكن ظهورها لم يكن -على الأرجح- إلا خلال العصر العباسي، حيث لم يعرف مثل هذه الأبنية طيلة فترة الخلافة الراشدة وحتى على عهد الأمويين، ولعل أقدم ضريح ورد ذكره في المصادر التاريخية هو قبة البرمكية بمدينة "عانة" في دير مارسرجس بالعراق، التي بناها هارون الرشيد في سنة ١٨٧هـ/٨١٢م على قبر أم الفضل بن يحيى البرمكية وقد كانت أمه من الرضاعة وكان يحبها فبنى لها قبة إكراما لها، وبقيت آثار هذه القبة إلى غاية سنة ١٩١١ ثم اندثرت^(١٨).

وتعد القبة الصليبية في سامراء والتي يعتقد أنها مدفن الخليفة العباسي المنتصر المتوفي في سنة ٢٤٦هـ/٨٢١-٨٢٢م، ودفن فيها بعد ذلك الخليفة المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م) ثم المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) أقدم ضريح لا تزال آثاره باقية إلى اليوم، تليها قبة اسماعيل الساماني في بخارى (٢٩٥هـ/٩٠٧م)^(١٩)، وفي الشام أقدم قبة هي قبة حلب (٣٣٦هـ/٩٧٦م)، ثم قبة دمشق (٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، وقد كان ظهور الأضرحة بسوريا مع دخول السلاجقة خلال القرن ٥هـ/١١م^(٢٠).

وفي مصر ترجع أقدم الأضرحة المتبقية إلى القرن ٣هـ/٩م بمقبرة اسوان، ثم استمرت في العهد الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) مثلما هو الحال في مشهد الجبوشي ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ومشهد السيدة رقية ٥٢٧هـ/١١٣٢م وتواصل

^{١٧} - (الولي طه)، المرجع السابق، ص ١٠٩.

^{١٨} - (الحداد محمد حمزة إسماعيل)، المرجع السابق، ص ٢٤-٣٥. انظر أيضا: سيف (علي سعيد)، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٥.

^{١٩} - (عفيفي محمد ناصر محمد)، القباب الجنائزية الباقية بصعيد مصر في العصر الإسلامي دراسة أثرية معمارية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢/١٤٢٣، ص ٤٣٢. انظر أيضا: كمال الدين (سامح)، «تطور القبة في العمارة الإسلامية»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد، ١٩٥٠، ص ٧.

^{٢٠} - (الشهابي قتيبة)، مشيدات دمشق نوات الأضرحة وعناصرها الجمالية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٤. انظر أيضا: معاذ (خالد)، «مدافن الملوك والسلاطين في دمشق»، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٥١، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢٤٠. الحديثي (عطا) عبد الخالق (هنا)، القباب المخروطية في العراق، مديرية الآثار العامة، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٤، ص ١٢.

بعد ذلك في العهد الأيوبي والمملوكي مثل مدفن الصالح نجم الدين ايوب (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وقبة أحمد المهندار (٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، وقبة برسباي (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)^(٢١).

أما بلاد المغرب فانه من الصعب تحديد تاريخ ظهور الأضرحة المغطاة بقبة، ولعل أقدم الأضرحة المعروفة قبة سيدي بوخريسان (٤٨٦هـ/١٠٩٣م)^(٢٢)، ثم تليها قبة البروديين المرابطية المشيدة فيما بين (٥١٤-٥٢٥هـ/١١٢٠-١١٣٠م)^(٢٣)، يليها ضريح المهدي بن تومرت، الذي ذكرت النصوص التاريخية بأنه من بناء عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨/١١٣٠-١١٦٣)^(٢٤)، وتواصل بعد ذلك بناء الأضرحة حيث يرجع إلى الخليفة الموحي محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م) بناء ضريح سيدي أبي مدين بتلمسان قبل أن يرممه يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٦-١٢٨٣م) وبعد ذلك السلطان المريني ابو الحسن (٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م)، والى هذه الفترة ترجع العديد من الأضرحة منها ضريح السلطان بتلمسان والذي يرجع تاريخه إلى بداية القرن ٧هـ/١٣م، وضريح سيدي ابراهيم (٧٦٥هـ/١٣٦٣م) بتلمسان أيضا، وفي المغرب الأقصى نجد أمثلة ترجع إلى العهد المريني مثلما هو الحال في الأضرحة الأربعة التي تقع بشلة بالقرب من مدينة الرباط والتي دفن فيها كل من السلطان أبو يعقوب، والسلطان أبو ثابت، والسلطان أبو سعيد، والسلطان أبو الحسن وهي

^(٢١) - ابو رحاب (محمد السيد محمد)، العماير الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين دراسة أثرية معمارية، دار القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٤٨٢.

^(٢٢) - الإسم الحقيقي لهذه القبة هو بنو خراسان نسبة إلى عبد الحق بن خراسان الهلالي الذي حكم مدينة تونس بداية من سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويرجع بناء القبة إلى ولديه اسماعيل وعبد العزيز بعد ان خلفاه في الحكم وقد دفنا فيها. أنظر: زبيس (سليمان مصطفى)، «القبة التونسية»، عن كتاب: المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية، بغداد، ١٨-٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٧، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٧٠-١٧١. أنظر أيضا: لعرج (عبد العزيز)، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، رسالة دكتوراه دولة، قسم الآثار، جامعة الجزائر، ١٩٩٩، ج ١، ص ٣٦١. MARÇAIS.G, l'Architecture Musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, Paris, P75-76.

^(٢٣) - الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠. انظر أيضا: فادية عطية مصطفى (عطية)، عمائر القاهرة الجنائزية خلال القرن ١٣هـ/١٩م دراسة أثرية معمارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآثار الإسلامية، قسم الآثار الإسلامية كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٤٢٤/٢٠٠٣، ص ٥٣٦، ٥٤٠، ٥٤١.

^(٢٤) - الكحلوي (محمد محمد)، العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي عمائر الموحدين الدينية في المغرب دراسة أثرية معمارية، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ١٤٠٦/١٩٨٦، ص ١٣١-١٣٢.

عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م^(٣١)، وإلى جانب اهتمام البايات والحكام حظيت الأضرحة باهتمام المشايخ وعامة الناس، لنجد امثلة عديدة تتوزع على مناطق مختلفة من أنحاء الجزائر شرقا وغربا شمالا وجنوبا إلى درجة أنه من غير الامكان الالمام بها أحصاء ودراسة، غير أننا نحاول تقديم بعض النماذج المتميزة للاستدلال على مختلف الأنماط التخطيطية للأضرحة بالجزائر خلال العهد العثماني.

ثانيا/ الدراسة الوصفية لنماذج من الأضرحة:

١/ ضريح سيدي ابراهيم بن التومي:

يقع هذا الضريح بوسط مدينة عنابة بالقرب من محطة الحافلات، عند تقاطع الطريق الوطني رقم ٤٤ بشارع بوعلي سعيد وشارع جيش التحرير الوطني، وهو يعرف اليوم باسم مسجد سيدي ابراهيم بن التومي، بعد أن صارت تقام فيه الصلاة. ينسب هذا الضريح للشيخ القطب المجاهد سيدي ابراهيم ابن التومي المرادسي الهلالي، المتوفى في ليلة الاثنين التاسع من رمضان عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م، وقد كان بناء هذا الضريح على قبره من طرف علي باي التونسي في سنة ١١٢٢هـ/١٧٦٩م، على حسب ما يظهر في نص نقيشة حديثة تعرف بصاحب الضريح مثبتة على مدخله.

تعرض هذه الضريح الى اضافات جديدة، حيث بنيت قبة بجوار القبة الأصلية وفيها تم إعادة دفن رفاة صاحب الضريح بعد أن تحول المعلم الى مسجد، فضلا عن اضافة سدة، وقاعة الوضوء.

يتشكل الضريح في أصله من بناء دائري تعلوه قبة(أنظر الصورة رقم ١)، يتم الدخول اليه عبر باب عرضه ١،٢٦م وارتفاعه ١،٩٠م يقع في الجهة الشمالية الشرقية، وفي الجهة الشمالية الشرقية يوجد محراب عمقه ٠،٥م وعرض حنيته ٠،٨٨م وارتفاعها ١،٧٠م، وعلى ارتفاع ٠،٩٥م من جدران الضريح توجد ٢٧ خزانة جدارية عمقها ٠،٣٠م ارتفاعها ٠،٧٥م، عرضها ٠،٤٠م، منها ما تأخذ شكلا معقودا ومنها ذات الشكل المستطيل.

في الجهة المقابلة للمحراب يوجد درج صاعد يوصل الى سقيفة هي الأخرى دائرية كانت في الأصل مشيدة بالخشب وحديثا تم اعادة بنائها بالاسمنت المسلح، وهي الأخرى تستغل في الصلاة، وفي الجهة القبليّة منها فتح باب (٠،٧٠×٠،٩٠م) معقود يفضي الى ممر نازل يؤدي الى خارج الضريح.

القبة دائرية الشكل توجد بها ١٧ كوة ارتفاعها ٠،٥٠م وعمقها ٠،٢٠م وعرضها ٠،٢٣م، واسعة من الداخل ضيقة من الخارج، كما تتخللها ثلاث نوافذ مستحدثة.

٢/ مقبرة وضريح سيدي المبارك:

^(٣١) - المزارى (ابن عودة)، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٣.

تقع هذه المقبرة بجوار مسجد ومدرسة سيدي مبارك بخنفة سيدي ناجي، وهي تضم ٢٦ قبراً، تتشكل من قاعة كبرى رئيسية غير منتظمة الأضلاع (أنظر المخطط رقم ١، والصورة رقم ٢)، تتراوح مقاساتها بين ٧،٤٥م و ١٠م، تتوسطها اربع دعامات تعلوها قبة كروية ذات رقبة في اركانها حنايا ركنية، وفي منتصف اضلاعها فتحات مستطيلة، ومن الخارج تأخذ هذه الرقبة شكلا مربعا، أما باقي المساحات فهي مغطاة بسقف مسطح مشكل من جريد النخيل والخشب والملاط، في حين استعملت مواد مختلفة في بناء الجدران، كالآجر والحجر والطوب.

وفي خلف هذه القاعة الى الناحية الجنوبية توجد قاعة أخرى مستطيلة الشكل يتراوح عرضها بين ١،١٠ الى ٣،١٧م، وطولها بين ٦،٣٠ و ٦،٧٦م، وهي الأخرى تحتوي على قبور، تراكيب هذه القبور بسيطة، فيما عدا مجموعة قليلة منها التي كسيت بألواح رخامية مزخرفة شبيهة بزخارف وتراكيب وشواهد قبور مقبرة صالح باي بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، خاصة من حيث وجود شواهد تنتهي بعمائم، وهو الشكل الذي دخل الى الجزائر مع دخول العثمانيين.

وبالقرب من هذه المقبرة إلى الناحية القبليّة خلف جدار القبلة لببيت الصلاة، وخلف الصحن يوجد ضريح الشيخ سيدي المبارك (أنظر المخطط رقم ٢، والصورة رقم ٣)، وهو مربع الشكل تقريبا مقاساته (٦٠،٦٠×٣،٤٥م)، يتم الدخول اليه عبر باب ينفتح على صحن المسجد، وقد فتحت فيه خزانة جدارية في الجدار الجنوبي الشرقي، ويتوسط أرضية هذا الضريح قبر الشيخ سيدي المبارك، يعلوه تابوت خشبي مزخرف، تكسوه أقمشة.

وتعلو الضريح قبة نصف كروية ترتكز في الأركان على حنايا ركنية، وفي مظهرها الخارجي تبدو القبة مشكّلة من رقبة مثمّنة فتحت في أربع واجهات منها نوافذ صغيرة، وفوق هذه الرقبة تقوم خوذة القبة بشكلها النصف كروي

٣/ ضريح سيدي السعد بن ابي بكر:

يقع الضريح بمدينة سوق اهراس، وهو ينسب الى الشيخ سيدي السعد بن ابي بكر على حسب اللوحة الرخامية المنقوش عليها نص تعريفى بالضريح وصاحبه والمثبتة فوق باب الضريح، إلا أنني وبكل أسف لم أتمكن من قراءة تاريخ بناء المعلم.

شكل هذا الضريح دائري (أنظر المخطط رقم ٣ الصورة رقم ٤)، قطره يصل الى حوالي ٧،٥م، تعلوه قبة كروية الشكل يتوجها جامور معدني، له باب ارتفاعه ٢،٣٠م وعرضه ١م، وهو يفضي الى داخل الضريح الذي يحتل أحد جوانبه قبر يغطيه تابوت أسدلت عليه ستائر من القماش، وفي الجدران الداخلية للضريح فتحت

١٠ خزائن جدارية على شكل محاريب، والضريح هذا مشابه تماما لضريح سيدي ابراهيم بن التومي بعنابة شكلا وزخرفة.
٤- ضريح سيدي محمد الغراب:

يقع هذا الضريح بوسط مرافق زاوية سيدي محمد الغراب، التي توجد بوسط قرية صالح باي المعروفة عند العامة باسم الغراب، على بعد ٦ كلم عن مدينة قسنطينة، وهو ينسب إلى الشيخ سيدي محمد الغراب، وقد سبق وأن ذكرنا بأن هذه الشخصية لا يزال يكتنفها الغموض، كما أن تاريخ بناء هذا الضريح قد يكون منذ عهد صالح باي^(٣٢).

يتم الدخول الى الضريح عبر باب عرضه ١،٢٢، وارتفاعه ١،٩٨م، يعلوه ساكف خشبي مغطى بالقرميد، وهو مربع الشكل (م ٦،٦٦×٦،٧م)، فتحت في كل جهة منه نافذة صغيرة، تعلوها عقود صماء، ترتكز عليها حنايا ركنية تتحول فيه القاعدة من الشكل المربع الى المثلث، تعلوها خوذة القبة بشكلها النصف كروي، ومن الخارج تبدو القبة ذات رقبة مربعة غطيت بسقف مائل بالقرميد، وفي مركزها تتطلق خوذة القبة بشكل مضلع، يتوجها جامور يحاكي شواهد القبور المعممة.

وفي أرضية هذا الضريح يوجد قبر صاحب الزاوية الشيخ سيدي محمد الغراب، وإلى جانبه دفن ١٢ فردا من أفراد عائلة ابن جلول، كل هذه القبور ترجع الى فترة أحدث من العهد العثماني بداية من أواخر القرن ١٣/١٩م إلى القرن ١٤هـ/٢٠م، فيما عدا ضريح سيدي محمد الغراب.

والضريح هذا لا يزال محل اهتمام الكثير من الزوار، حيث يزورونه في أيام ومناسبات عدة للتبرك وطلب قضاء الحاجات وتقديم الذبائح، وإشعال الشموع.

٥/ ضريح ثلاث سيود:

يعود هذا الضريح إلى ثلاثة أولياء صالحين يقع في الجهة الجنوبية لمدينة ميلة القديمة، في الجهة الشمالية لمسجد سيدي غانم، وهو يشغل مساحة مستطيلة الشكل تقريبا، يقع المدخل الرئيسي له في الجهة الجنوبية من الواجهة الغربية تقريبا، يتكون المبنى من قاعة الصلاة تأخذ شكلا مستطيلا، يتوسط جدارها الشرقي محراب يعلوه قوس نصف دائري، وعلى جانبيه توجد نافذتان تعلوان عن الأرضية، وغرفة الضريح التي تقع في الجهة الغربية للمبنى، وهي عبارة عن مساحة مربعة يتم الولوج إليها عبر فتحة الباب، فتحت في جداريها الشمالي والجنوبي نافذتان، تشتمل الغرفة على ثلاثة توابيت خشبية مغطاة بستائر خضراء وحمراء اللون، خالية من الزخرفة تعلوها شواهد القبور، تعلو هذه الغرفة قبة ترتفع

٣٢ - (قشي(فاطمة الزهراء)، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بليس، قسنطينة، ٢٠٠٥، ص ١٣١.

عن الأرضية (أنظر الصورة رقم ٥)، على شكل نصف كرة تتوسطها زخرفة نباتية، أرضية الغرف. بلطن ببلاطات زخرفية خضراء اللون مربعة، وهي مستحدثة بسبب الترميمات التي أدخلت على الضريح.

٦/ ضريح الزاوية الحسينية بسيدي خليفة:

يقع هذا الضريح بالزاوية الحسينية ببلدية سيدي خليفة ولاية ميله، وهو ينسب إلى الشيخ سيدي الحسيني بن الصالح بن ابي محمد عبدالله، أصل عائلته من أشرف أحواز مراكش، ومنها انتقل جده الأدنى الى قسنطينة، وقد كان أول دخول الشيخ لمنطقة سيدي خليفة في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، وبعد عامين أسس زاويته بها أي في سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م^(٣٣).

يحتل الضريح الزاوية الشمالية الغربية من صحن الزاوية، وهو ذو مسقط مربع (أنظر المخطط رقم ٤)، يتم الدخول اليه عبر باب في منتصف ضلعه القبلي، يفتح على الصحن، وهو في شكل غرفة مربعة الشكل طولها ٨٠م، تعلوها قبة نصف كروية، تقوم على حنايا ركنية، وفي منتصف ثلاث جدران الشمالي، والغربي والجنوبي توجد خزانات جدارية مقاساتها ٩٠،٩٠×٧٠م، وعمقها ٥٠م، ويتوسطها أرضية الضريح قبر مؤسس الزاوية، يعلوه تابوت خشبي كسي بالأقمشة.

٧/ القبة الضريحية بالجامع الأخضر:

تقع هذه القبة في الجهة الغربية خلف الجامع الأخضر، وهي تعد امتدادا معماريا له، ولا يفصلها عنه سوى فناء يتوسطهما.

كان بناء هذه القبة من طرف الباي حسن المدعو بوحنك (١١٤٩-١١٦٨هـ/١٧٣٦-١٧٥٤م)، مؤسس الجامع، وهو أول من دفن فيها بتاريخ ١١٦٨هـ/١٧٥٤م^(٣٤)، كما دفن فيها بعد ذلك ابنه الباي حسين بن حسن في

^{٣٣} -) بن الشيخ الحسين (عبدالعليم)، تاريخ الزاوية الحسينية، مطبوعة غير منشورة بالزاوية الحسينية، مارس، ٢٠٠٥، ص ٩٠، ١٦٦.

^{٣٤} -) للإطلاع أكثر على مؤسس هذا الضريح أنظر: ابن المبارك (الحاج احمد)، تاريخ حاضرة قسنطينة، صححه وعلق عليه نور الدين عبدالقادر، الجزائر، ١٩٥٢، ص ١٩-٢٠. انظر أيضا: ابن العنتري (محمد الصالح)، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز، دار هوم، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٦٨-٧١.

١٢٠٩هـ/١٧٩٥م، ثم حفيده حسن المدعو حسونة في سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م
١٨٠٠م^(٣٥).

تؤرخ هذه القبة بنفس التاريخ الذي انشئ فيه الجامع، والمحدد بأواخر شهر شعبان
١١٥٦هـ/أكتوبر ١٧٤٣م حسب اللوحة التأسيسية للجامع^(٣٦).

يتم الوصول إلى هذه القبة عبر مدخلي الجامع الأخضر المفتوحان بالطابق السفلي،
وبعد اجتياز ممر يقع خلف السقيفة التي بين المدخلين نصل مباشرة إلى الفناء،
ومنه وعبر أربع درجات آجرية نصل إلى ممر صغير طوله ٢،١٧م وعرضه
١،٢٠م، وهو مستحدث، فتح في ضلعه الجنوبي باب كان في الأصل معقودا بعقد
حدوي متجاوز، عرض فتحته حوالي ١،٥م، وهو يفتح على قبة ذات مسقط مربع
(أنظر المخطط رقم ٥)، طول ضلعها الشمالي والجنوبي ٤،٦٨م والغربي ٤،٤٠م
والشرقي ٤،٤٥م، يحيط بها جدران من الناحية الغربية والجنوبية، بينما فتح الجدار
الشرقي كلية على الفناء الذي يتقدمه، أما الجدار الشمالي فكما سبق وان قلنا فتح فيه
باب.

تقوم القبة في الأركان فوق أربعة أعمدة رخامية اسطوانية الشكل، تيجانها على
شكل حلقتين دائريتين يعلوهما شكل مربع مندرج، وفوقهما ترتفع عقود نصف
دائرية تبرز عن الجدار بمقدار ٢٠سم في الأركان، ويتوسط الضلع الشرقي عمود
اسطواني مماثل للأعمدة السابقة، ينطلق منه عقدان يتقاطعان مع العقد العلوي
الكبير يشكلان بائكة من عقدين منكسرين.

وتستمر الجدران فوق الأفواس بمقدار حوالي ٥٠سم، ثم يتحول المربع إلى شكل
مثنى بواسطة حنايا ركنية مثلثة بشكل أفقي مستوي من دون شك تكون مبنية
بعوارض خشبية مغروزة في الجدران من الجانبين، غطيت بطبقة من الجص،
وفوقها تقوم قبة دائرية خالية من الزخارف.

^(٣٥) - للإطلاع أكثر على وصف القبور والضريح بصفة عامة، أنظر: دحدوح (عبدالقادر)، المعالم
الأثرية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دار ذاكرة الأمة، الجزائر، ٢٠١٥، ج ١، ص ٢٠٤-
٢١٠.

^(٣٦) - للإطلاع على نص الكتابة انظر: بورويبة (رشيد)، الكتابات الأثرية في المساجد
الجزائرية، ترجمة ابراهيم شيوخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص ١٥٩-
١٦١. معزوز (عبد الحق) و درياس (لخضر)، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، الجزء
الأول: كتابات الشرق الجزائري، منشورات المتحف الوطني للآثار القديمة، مطبعة سومر-يئر
خادم، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ١٦١-١٦٤. «Inscriptions arabes de la province de Constantine», in : Annuaire de la société archéologique de la province de
Constantine, 1856-1857, PP.102-104.

وفي أسفل القبة في وسط الضريح توجد ثلاثة قبور (الصورة رقم ٦)، دفن فيها كل من حسن باي بن حسين، وابنه حسين باي بن حسن، وحفيده حسن بن حسين باي، وهي محفورة بشكل متوازي في وسط أرضية القبة.

٨/ القبة الضريحية بمدرسة سيدي الكتاني:

تقع القبة الضريحية خلف صحن المدرسة الكتانية التي تقع بجوار جامع سيدي الكتاني، بالجهة الغربية من المدينة أسفل القصبة، وبجوار سوق الجمعة الذي كان في زمن الاستعمار يعرف بساحة نيغرييه، ويعرف حالياً بسوق العصر، والمدرسة تتفتح من الناحية الشرقية على نهج بوهالي لعيد.

يرجع تأسيس هذه القبة إلى صالح باي (١١٨٥-١٢٠٧هـ/١٧٧١-١٧٩٢م) مؤسس مدرسة سيدي الكتاني^(٣٧).

يرجع تاريخ بناء القبة الضريحية إلى نفس التاريخ الذي بنيت فيه المدرسة الكتانية والمحدد بسنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م، وقد سجل هذا التاريخ في كتابة أثرية تأسيسية^(٣٨).

تحتل القبة الضريحية الجزء الغربي من مدرسة سيدي الكتاني (انظر المخطط رقم ٦)، وهي ترتفع عن أرضية صحن المدرسة بـ١م، يتم الصعود إليها عبر ممر عرضه ١,٥م، به أربع درجات تقع عند نهاية الرواق الغربي من الصحن، وهي تتشكل معمارياً من مساحة مربعة (٣,٩٠×٤,١٠م) مفتوحة من ثلاث جهات، في حين يوجد في الجهة الرابعة جدار مصمت، وفي أركانها دعائم مربعة، اثنتان منها مدمجتان في الجدار تبرزان عنه بـ١,٠م، وفوق هذه الدعائم تتطرق عقود نصف دائرية، وفي نفس المستوى الذي تنتهي فيه هذه العقود يبدأ المربع يتحول إلى مثنى بواسطة حنايا ركنية عبارة عن محارات مشعة، ثم ترتفع القبة فوق ذلك بتضليعاتها المحددة بأخاديد حفرت بها أشكال هندسية من المعينات والمثلثات بأسلوب الحفر الغائر.

وعلى الجانب الشمالي والجنوبي للقبة يوجد رواقان غطيا بقبو نصف دائري، عرض الأول (الشمالي) في طرفه الغربي ١,٨٥م، وفي طرفه الشرقي ١,٥٥م، وعرض الثاني ١,٥م، كما يتقدم القبة رواق عرضي يمتد من الشمال إلى الجنوب، وينتهي عند بداية الدرج الصاعد، أرضيته منخفضة عن أرضية القبة والرواقين

^(٣٧) - حول صالح باي انظر: ابن المبارك (الحاج احمد)، المصدر السابق، ص ٢٦-٢٨. ابن العنترى (محمد الصالح)، المصدر السابق، ص ٧٨-٨٤. شغيب (محمد المهدي بن علي)، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة-الجزائر، ١٩٨٠، ص ٣٧٦-٣٨٦.

^(٣٨) - للاطلاع على نص الكتابة انظر: معزوز (عبد الحق) و درياس (لخضر)، المرجع السابق، ص ١٧٦-١٧٨. .CHERBONNEAU.A, op-cit, PP.108-110.

السابق الذكر بـ ١٥، ٢٠م، وهو مغطى بأقبية برميلية مستحدثة في العهد الفرنسي، وتحف به من جهة الصحن درابزين رخامية.

وألق بالقبّة وإلى الجانب الجنوبي منها غرفة طولها ٨٠، ٤م عرضها ٣٥، ٢م، تمثل امتدادا لغرف وخلوي الطلبة التي تتفتح على الرواق الجنوبي لصحن المدرسة، لها باب يطل على القبّة عرضه ٩٥، ٠م وارتفاعه ٩٠، ١م.

زينت الجدران الثلاثة المحيطة بالمقبرة ببلاطات خزفية متنوعة تنتظم في شكل حشوات، اغلب تصاميمها كنا رأيناها في المعالم السابقة، منها بلاطات تغلب عليها أزهار القرنفل وأخرى على هيئة عفسة الأسد، ونوع ثالث رأيناها في محراب جامع سيدي الكتاني التي على هيئة سلال بها باقات من الأزهار والأوراق والثمار، وبلاطات أخرى ذات أشكال هندسية تغلب عليها أقواس السهام والقواقع البحرية، فوقها شريط من الجص به كتابة^(٣٩) بخط الثلث نقشت بالحفر البارز.

تضم المقبرة ١٦ قبراً (الصورة رقم ٧)، يأتي في مقدمتها قبر صالح باي صاحب الضريح، وأبنائه وأفراد من عائلته وغيرهم، منها ما يضم شاهد قبر ذكر فيه اسم المتوفي وتاريخ وفاته، ومنها ما يبقى بالنسبة لنا مجهولاً لعدم وجود شاهد قبر يشير إلى صاحب القبر وتاريخ وفاته^(٤٠).

ثالثاً/ الدراسة التحليلية:

١/ أنماط الأضرحة من حيث موضع البناء:

أ/ الأضرحة المستقلة:

يغلب على الأضرحة المدروسة أنها جاءت ملحقة بأحد المباني الدينية كالمساجد والمدارس والزوايا على الخصوص، وقد يكون أصل البناء ضريحاً تلحق به فيما بعد بناية أخرى قد تكون في شكل مسجد أو زاوية، كما هو الحال بالنسبة لضريح سيدي عبدالرحمن وضريح سيدي أحمد بمدينة الجزائر، وقلما نجد الأضرحة مستقلة في النماذج المدروسة، ولعل من بين الأمثلة نذكر ضريح سيدي السعد بن ابي بكر بسوق أهراس، وضريح سيدي ابراهيم بن التومي بعنابة.

ب/ إلحاق الأضرحة بالمساجد:

شاعت ظاهرة إلحاق الأضرحة بالمساجد وغيرها من المنشآت الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني، ومن أمثلتها بمدينة قسنطينة القبّة الضريحية الملحقة بالجامع

^{٣٩} - معزوز (عبد الحق) و درياس (لخضر)، المرجع السابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

^{٤٠} - عن هذه القبور ووصف تراكيبها وشواهدا وكتابتها أنظر: دحدوح(عبدالقادر)، المرجع السابق، ص ٢١٣-٢٣٢.

الأخض (١١٥٧هـ/١٧٤٣م)، ومسجد حفصة ومسجد سيدي قموش، وبمدينة معسكر ألحقت بجامعها الكبير (١١٦٠هـ/١٧٤٧م) قبة دفن بها الباي ابراهيم، كما ألحق ضريح سيدي المبارك بالمسجد المعروف بنفس الاسم بخنقة سيدي ناجي^(٤١).

وإذا كانت فكرة الحاق الأضرحة والمدافن بالمساجد في الجزائر ترجع الى فترات سابقة للعهد العثماني، مثلما هو الحال بالنسبة لضريح سيدي عقبة بن نافع (أنظر المخطط رقم ٧) الذي يقع داخل مسجد سيدي عقبة بعد التوسيعات التي تعرض لها المعلم عبر التاريخ، وإلى العهد الزياني (٦٣٣-٩٤٩هـ/١٢٣٦-١٥٤٣م) وجدت أضرحة ملحقة بالمساجد، مثلما كان الحال في القبة الملحقة بمسجد سيدي ابراهيم (٧٥٩هـ/١٣٥٨م) بتلمسان، ونفس الأمر بالنسبة لضريح سيدي ابي مدين الذي يقع إلى جواره مسجد سيدي بومدين وهو من بناء المرينيين في تلمسان^(٤٢)، إلا ان الظاهرة انتشرت أكثر على غرار ما كان سائدا في تركيا، والتي نذكر من أمثلتها تربة السلطان محمد الفاتح الملحقة بجامعه في استانبول (٨٦٧-٨٧٥هـ/١٤٦٢-١٤٧٠م)، والضريح الملحق بجامع سليمان القانوني باستانبول (٩٥٧-٩٦٥هـ/١٥٥٠-١٥٥٧م)^(٤٣).

كما انتشرت نفس الظاهرة في تونس خلال العصر العثماني، ومن الأمثلة على ذلك التربة التي ألحقها يوسف داي (١٠١٩-١٠٤٧هـ/١٦١٠-١٦٣٧م) بمسجده في مدينة تونس، ونفس الأمر سار عليه حمودة باشا (١١٩٦-١٠٧٦هـ/١٦٣١-١٦٦٦م) و حسين بن علي (١١١٧-١١٥٣هـ/١٧٠٥-١٧٤٠م) فكل واحد منهما بنى مسجدا وألحق به مدفنا^(٤٤).

وفي ليبيا بدأت هذه الظاهرة في وقت مبكر، فقد ألحق عمرو بن العاص بمسجد بناه في بلدة جنزور مدفنا دفنت فيه أم سالم بن مرغم وبعضا من ولده وضرب عليه باباب، واستمرت خلال العهد العثماني لنجد لها عدة أمثلة منها المدفن الملحق بجامع

^{٤١} - ابن هطال (احمد التلمساني)، رحلة محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبدالكريم، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٩. أنظر أيضا: ابن سحنون (احمد الراشدي)، المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨. المزارى (الأغا ابن عودة)، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٥. مهيرس (مبروك)، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٤٢.

^{٤٢} - بورويبة (رشيد)، الطراز الموحي ومشتقاته، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٥.

^{٤٣} - أصلان أبا (اوقطاي)، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة احمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، ١٩٨٧، ص ١٩٨، ٢٠٠، ٢١٩، ١٨٦، ١٨٧. انظر ايضا: KUBAN.D, «L'architecture ottomane» in: *L'Art en Turquie*, Office du Livre, Imprimé en Suisse, 1981, P147, 148.

^{٤٤} - SAADAOUI. A, Tunis Ville Ottomane Trois siècles d'urbanisme et d'architecture, Centre de Publication Universitaire, Tunis, 2001, P51, 91, 146.

درغوت باشا (٩٧٢هـ/١٥٦٥م)، ومدفن جامع سيدي سالم المشاط (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م)، وجامع احمد باشا القرمانلي (١١٥٠هـ/١٧٣٨م)^(٤٥).

وبمصر توجد عدة أمثلة للأضرحة التي ألحقت بالمساجد وهي تعود الى فترات تاريخية مختلفة نجدها على الخصوص في العهد المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، واستمرت خلال العهد العثماني، كما هو الحال في قبة الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م) وقبة بيبيرس الجاشنكير، ومسجد سليمان باشا (٩٣٥هـ/١٥٢٨م)، والقبة الملحقة بجامع محمد قرا باشا بميدان صلاح الدين (١١١٣هـ/١٧٠١م)، وقبة الشيخ رمضان (١١٧٥هـ/١٧٦١م)، مسجد السادات الوفاية (١١٩١هـ/١٧٧٧م)^(٤٦)، كما وجدت أمثلة مبكرة باليمن ألحقت فيها المدافن بالمساجد مثلما هو الحال في الجامع الكبير بمدينة صعدة والذي يرجع بناؤه الى الإمام يحيى الهادي الى الحق (٢٩٨هـ/٩١٠م)^(٤٧).

أما من حيث موضع قبة الضريح فقد اختلفت وتنوعت أماكن تواجدها بالنسبة للمنشآت الملحقة بها، فاحيانا تكون مرتبطة ببيت الصلاة، كأن تكون بداخله كما هو الحال بالنسبة لضريح سيدي عقبة بالمسجد المعروف بنفس الاسم ببسكرة، أو على احد جوانبه أو خارج جدار القبلة، وأحيانا تكون منفصلة عن بيت الصلاة كما هو الحال في الجامع الأخضر وجامع سيدي الكتاني بمدينة قسنطينة، وضريح سيدي مبارك بخنفة سيدي ناجي ببسكرة، وهو التقليد الذي سارت عليه أغلب الأمثلة بالجزائر سواء خلال العهد الزياني (٦٣٣-٩٤٩هـ/١٢٣٦-١٥٤٣م) المريني (٦٦٩-٨٦٩هـ/١٢٦٩-١٤٦٥م) أو خلال العصر العثماني (٩٢٠-١٢٤٥هـ / ١٥١٤-١٨٣٠)^(٤٨).

ونجد نفس التقليد في بعض المساجد بالمشرق الإسلامي، منها عدة نماذج تعود الى العهد المملوكي، منها قبة صرغتمش وقبة اولجاي اليوسفي وقبة جاني بك بالخيامية

^{٤٥} - (البهنسي (صلاح احمد)، العمارة الدينية في طرابلس في العصر العثماني الأول (٩٥٨-١١٢٣هـ/١٥٥١-١٧١١م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار من قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٤١٤/١٩٩٣-١٩٩٤، ص ١٥٠، ١٥٦-١٥٧.

^{٤٦} - (البهنسي (صلاح احمد)، المرجع السابق، ص ١٥٧. انظر ايضا: عفيفي(محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ج١، ص ٤٣٥-٤٣٦.

^{٤٧} - (G.VENTRONE-VASSALLO, «Les Mausolées de la Ville de Sa'da» in : Cimetières et Traditions Funéraires dans le Monde Islamique, Actes du Colloque International du Centre National de la Recherche Scientifique Organisé par l'Université Mimar Sinan, Istanbul, 28-30 Septembre 1991, Publiés par la Société d'Histoire Turque, Ankara, 1996, P30-31.

^{٤٨} - بورويبة(رشيد)، الطراز الموحدى ومشتقاته، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٣٥.

والقبة الملحقة بمدرسة الأمير قرا سنقر، والى العهد العثماني نذكر قبة البيومي الملحقة بجامعة (١١٨٠هـ/١٧٦٦م)^(٤٩)، وفي ليبيا ضريح مراد آغا الملحق بجامعة في تاجوراء (٩٦٠هـ/١٥٥٣م) الذي يقع خلف الصحن أو الفناء منفصلا عن بيت الصلاة^(٥٠).

ج/ إلحاق الأضرحة بالمدارس:

تحتفظ الجزائر بأربع مدارس أثرية لا تزال باقية، وهي تتمثل في كل من مدرسة سيدي الكتاني (١١٨٩هـ/١٧٧٥م) ومدرسة الجامع الأخضر (١١٩٣هـ/١٧٧٩م) بمدينة قسنطينة، ومدرسة خنق النطاح بمدينة وهران، والمدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي، وفي ثلاثة من هذه المدارس ألحقت أضرحة، حيث جاءت قبة الضريح خلف صحن مدرسة سيدي الكتانية بقسنطينة، بينما دفن الباي محمد بن عثمان الكبير (١١٩٢-١٢١٣هـ/١٧٧٨-١٧٩٩م) داخل المدرسة التي أنشأها بخنق النطاح، في حين ألحقت مقبرة خلف مدرسة ومسجد سيدي مبارك بخنقة سيدي ناجي في شكل تجمع معماري ديني متكامل مسجد ومدرسة وأضرحة ومقبرة.

وقد كان هذا التقليد منتشرًا في أقاليم مختلفة من العالم الإسلامي، حيث عرفت المدارس بتونس وليبيا خلال نفس الفترة العثمانية ظاهرة إلحاق الأضرحة بالمدارس، ومن الأمثلة على ذلك بتونس التربة التي ألحقها الباي حسين بن علي بالمدرسة الحسينية الصغرى (١١٢٠-١١٢٢هـ/١٧٠٨-١٧١٠م)^(٥١)، وفي ليبيا مدرسة عثمان باشا الساقرلي بطرابلس (١٠٦٤هـ/١٦٥٤م)^(٥٢).

وقد كان هذا التقليد معروفًا ببلاد المغرب قبل العصر العثماني وبالتحديد خلال العهد الحفصي (٦٢٥-٩٨١هـ/١٢٢٨-١٥٧٣م) بتونس، حيث يذكر أن الحاجب ابن تافركين دفن بمدرسته بتونس في سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م^(٥٣).

^(٤٩) - عيفي (محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ص ٤٣٧.

^(٥٠) - البهنسي (صلاح احمد)، المرجع السابق، ص ١٥٠-١٥٥.

^(٥١) - بن مامي (محمد الباجي)، المرجع السابق، ص ٢٦١، ٢٦٣. انظر أيضا: SAADAOU. A, op-cit, P140-143.

^(٥٢) - بن مامي (محمد الباجي)، المرجع السابق، ص ١٨٧. انظر أيضا: البهنسي (صلاح احمد)، المرجع السابق، ص ١٤٦-١٥٤-١٥٥. نجيب (مصطفى)، «مدرستان مستقلتان بطرابلس الغرب الساقرلي والكاتب، دراسة أثرية معمارية»، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد ١٠، ٢٠٠٤، ص ١٤٧-١٥٥. GOLVIN.L, Architecture Musulmane La Madrasa Médiévale, EDISUD, Aix-en-Provence, P182.

^(٥٣) - بن مامي (محمد الباجي)، المرجع السابق، ص ١٨٧. انظر أيضا: GOLVIN.L, Architecture Musulmane, op-cit, P182.

أما بلاد الأناضول فقد عرفت الحاق الأضرحة بالمدارس منذ العهد السلجوقي (٤٧٠ هـ/١٠٧٧-١٣٠٨م)، حيث نجدها في كل من المدرسة التوأم (جفته مدرسة) التي يرجع بناؤها الى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥م، ومدرسة قونية المعروفة باسم صرجالي مدرسة (١٢٤٢م) ومدرسة طاش في اقشهر (٦٤٨ هـ/١٢٥٠م)^(٥٤).

المشرق الإسلامي هو الآخر عرف نفس الظاهرة في وقت مبكر على غرار الأناضول في العهد السلجوقي، ومن أولى أمثلتها في بلاد الشام مدرسة السلطان نور الدين بدمشق (٥٦٣ هـ/١١٦٨م)، كما نجد في مصر أمثلة عديدة، منها المدرسة الصالحية (٦٤١-٦٤٨ هـ/١٢٤٣-١٢٥٠م)^(٥٥)، ونفس الأمر كان في اليمن، حيث كانت عدة مدارس تضم أضرحة مثل المدرسة الأشرفية الكبرى (٨٠٠ هـ/١٣٩٧م)^(٥٦).

د/ إلحاق الأضرحة بالزوايا:

تتشرك الكثير من الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني في ظاهرة إلحاق الضريح بالزاوية، وهي الظاهرة التي نجد لها عدة أمثلة من بينها زاوية سيدي عبد المؤمن، وزاوية بن عبد الرحمن باش تارزي، وزاوية سدي محمد الغراب، والزاوية الحسينية بسيدي خليفة، ففي الأولى وجد الضريح خارج بيت الصلاة، وفي الثانية وجد ضريح المؤسس داخل بيت الصلاة يعزله سياج خشبي عن بقية أجزاء بيت الصلاة، إضافة الى ثلاثة قبور كانت تحتل الرواق الشرقي القبلي المحيط بالصحن، في حين بني الضريح في شكل بناء مستقل بزاوية الغراب بين مسكن وصحن مسجد الزاوية، ونفس الأمر بالنسبة لضريح الزاوية الحسينية حيث بني في ركن الصحن الذي يتوسط بين المسجد والمسكن.

وقد عرفت ظاهرة إلحاق الأضرحة بالزوايا في بلاد المغرب خلال العصر العثماني، ففي المغرب الأقصى كانت أغلب الزوايا بها اضرحة وفي كثير من الأحيان كانت الأضرحة هي النواة الأولى التي بنيت حولها الزوايا، ومن أمثلتها

^{٥٤} -) أصلان آبا (اوقطاي)، المرجع السابق، ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥ انظر أيضا:

KURAN.A, «L'architecture seldjoukide en Anatolie» in : *L'Art en Turquie*, Office du Livre, Imprimé en Suisse, 1981, P96. KUBAN.D, op-cit, P147, 148.

^{٥٥} -) البهنسي (صلاح احمد)، المرجع السابق، ص ١٥٤، ١٤٦، ١٥٥. انظر أيضا: GOLVIN.L, op-cit, P52-53, 105-108.

^{٥٦} -) النصر (محمد سيف)، «نظرة عامة إلى المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية»، مجلة الإكليل، السنة الثالثة، العدد الأول، ١٤٠٦/١٩٨٥، ص ١٠٦-١٠٧.

الزاوية الجزولية بمراكش التي نشأت حول ضريح بناء السلطان السعدي أحمد الأعرج على رفاة والده محمد القائم والشيخ الجزولي^(٥٧).

ونفس التقليد كان بأغلب زوايا تونس، حيث كان الضريح النواة الأساسية بزوايا المنستير، مثلما هو الحال في زاوية سيدي بو علي وزاوية سيدي مسعود وزاوية سيدي الحياص^(٥٨)، ومن الزوايا التي الحق بها ضريح بليبيا الزاوية الأسمرية المنسوبة الى الشيخ عبد السلام الأسمر المتوفي في سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م بزليتين، وزاوية يعقوب بطرابلس، والزاوية المدنية ببغازي وغيرها^(٥٩).

وقد عرفت مصر هذا الشكل من الزوايا منذ الفترات السابقة للعصر العثماني، حيث نجد لها أمثلة في القاهرة ترجع الى العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) والملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) ثم استمرت الى غاية العصر العثماني، ومن أمثلتها تكية البكتاشية التي بلغ عدد القبور بها اربعين قبرا، وتكية الشيخ سنان باشا، وزاوية حسن الرومي^(٦٠)، ومن الزوايا ما جاء فيها الضريح داخل بيت الصلاة كما هو الحال بالنسبة لقبة تتكز بغا بمنشية ناصر بمصر وهي تقع داخل الإيوان الرئيسي للخانقاه متقدمة المحراب^(٦١).

٢/ أنماط التخطيط المعماري للأضرحة:

أ/ الأضرحة ذات المسقط المربع تعلوه قبة:

وهو الطراز الذي يعد الأكثر تواجدا في شرق العالم الإسلامي وغربه، و أقدم الطرز في العمارة الجنازية الإسلامية، وهو ذو تخطيط بسيط، يتكون من مساحة مربعة تعلوها قبة، وأحيانا يتقدم هذه الترتب رواق -أو أكثر- خارجي (سقيفة)، وقد تبنى هذه الترتب مستقلة أو ملحقة بغيرها من العماائر كالمساجد والمدارس والزوايا، بل والمنازل أيضا ولاسيما خلال العصر العثماني.

والأمثلة على ذلك عديدة في شرق العالم الإسلامي وغربه، واستمر هذا الطراز عبر مختلف الفترات التاريخية منذ الفترة العباسية الى غاية العهد العثماني، وان كان عند العثمانيين لم يستخدم على نطاق واسع ولم يكن شائعا والنماذج المتبقية منه

^{٥٧} - ابو رحاب(محمد السيد محمد)، المرجع السابق، ص ٤٨٢.

^{٥٨} - هلاي (عفاف)، المعالم الدينية بمدينة المنستير دراسة اثرية وتاريخية، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، اختصاص اثار اسلامية، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩، ص ٤١-٤٢.

^{٥٩} - خضري (سمير عبد المنعم)، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

^{٦٠} - منصور (هند علي حسين)، المرجع السابق، ص ٢١٢.

^{٦١} - عفيفي (محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ص ٤٤٢.

قليلة، مثل قبة حاجي سلطان وقبة بايزيد الأول في بورسة وتربة السلطان احمد في استانبول (١٠٢٩هـ/١٦١٩م)^(٦٢).

أما في شمال افريقيا فقد شاع هذا الطراز عبر مختلف الفترات، والأمثلة عليه عديدة، والغالب على مخططاته أنه مربع يعلوه غطاء يختلف من منطقة الى أخرى حسب اختلاف المناخ وإمكانيات صاحب الضريح ومكانته، فقد يكون مغطى بقبة أو قرميد أو من القصب والديس^(٦٣)، ومن أمثله على حسب النماذج المدروسة نذكر ضريح سيدي عقبة، وضريح سيدي عبدالرحمن بمدينة الجزائر، وضريح الزاوية الحسينية بسيدي خليفة، وضريح سيدي محمد الغراب بقسنطينة، وضريح سيدي مبارك بخنقة سيدي ناجي.

ب/ الأضرحة ذات المسقط الدائري تعلوه قبة:

نجد لهذا النمط مثالين فقط في الجزائر خلال العهد العثماني، وهما ضريح سيدي ابراهيم بن التومي بعنابة وضريح سيدي السعدي بسوق أهراس، وهما متشابهان إلى حد كبير، حيث يتشكل كل واحد منهما من مسقط دائري تعلوه قبة نصف كروية من غير حنايا ركنية، ولا ندري ان كان هذا النمط معروفا في بلدان أخرى من أنحاء العالم الاسلامي، حيث لم يتسن لي البحث بتتبع الأصول التخطيطية لهذه الظاهرة في الأضرحة، إلا ما يمكن القول هنا هو أن الأضرحة الدائرية كانت معروفة في بلاد المغرب منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث تظهر في قبور فجر التاريخ والتي تعرف باسم البازينات والشوشات وغيرها، كما استمرت خلال الفترات القديمة لتظهر في أمثلة عدة منها ضريح المدغاسن والضريح الملكي بتيبازة^(٦٤)، ثم انقطع هذا التخطيط خلال العصر الوسيط ليعاود الظهور خلال الفترة العثمانية في هذين المثالين.

^{٦٢} - الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، جامعة الكويت، ٢٠٠٢، ص ٢٣٣-٢٣٤. أنظر أيضا: أصلان أبا (اوقطاي)، المرجع السابق، ص ٢٢١. MASLOW.M, les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Paris, MCMXXVII, P56. ARIK.O, «L'architecture turque de la période des Emirats turcomans en Asie Mineure» in L'Art en Turquie, Office du Livre, Imprimé en Suisse, 1981, P137.

^{٦٣} - عزوق (عبد الكريم)، «الأضرحة في بجاية دراسة نموذجية»، مجلة دراسات تراثية، مخبر البناء الحضاري للمغرب الاوسط (الجزائر)، معهد الاثار، جامعة الجزائر، العدد الأول، ٢٠٠٧، ص ١٣٨-١٤٨. انظر ايضا: CAUVET, «les Maraboutes: Petits Monuments Funéraires et Votifs du Nord de l'Afrique», Revue Africaine, 1923, P274, 293-294. MARÇAIS.G, op-cit, P435-437.

^{٦٤} - لحسن (رايح)، أضرحة الملوك النوميدي والمور، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ٢٨-٣٣، ٦٧-١٣٧. أنظر أيضا: عقون (العربي)، «ضريح تيبازة الملكي مقارنة في تاريخ وهوية هذا المعلم»، عن مجلة دفاتر البحوث العلمية، مجلة علمية محكمة تصدر عن

ج/ الأضرحة المفتوحة:

نجد لهذا النمط عدة أمثلة نذكر منها كلا من القبة الضريحية بالجامع الأخضر والقبة الضريحية بمدرسة سيدي الكتاني، والقبة الضريحية بخنقة سيدي ناجي مع بعض الاختلافات والتميز بين كل ضريح وآخر.

يتميز هذا النمط بوجود أربعة أعمدة أو دعائم تعلوها قبة، أو سقف هرمي الشكل أو مسنم، وأحيانا سقف خشبي، وهذه الأعمدة إما تقوم على الأرض مباشرة أو على مصطبة حجرية ترتفع على سطح الأرض، وتحتوي على المنزل المؤدي الى حجرة الدفن، ويتوسط التربة تركيبة الدفن.

وقد عرف هذا التخطيط خلال فترات سابقة للإسلام خاصة في سوريا والتي ترجع أقدم النماذج بها الى أوائل القرن ٤م، كما هو الحال في دانا وسرمدة وروحا والبارة، واستمر بعد ذلك خلال العصر الإسلامي في العديد من الأضرحة كتلك التي نراها في مقابر اسوان، وانتشر هذا الطراز في المشرق والمغرب على السواء، بمصر وسوريا^(٦٥) والمغرب كما هو الحال في بعض الأضرحة التي بنيت بتلمسان مثل ضريح السلطان (بداية القرن ٧هـ/١٣م)، ونماذج وجدت بفاس بالمغرب الأقصى منها أربعة أضرحة لخلفاء ابي الحسن المريني (٧٦٣-٨٠١هـ/١٣٦١-١٣٩٨م)^(٦٦).

وقد شاع طراز الأضرحة المفتوحة المربعة والمضلعة خلال العصر العثماني بتركيا وفي سائر الولايات التابعة لها، ومن النماذج التي تنتمي الى هذا الطراز نذكر ضريح لالا شاهين باشا في كرامستي (ق ٨هـ/٤م) قرب بورصة، وضريح دولت شاه خاتون ام السلطان محمد جلبي (٨١٥هـ/١٢٤١م) في بروسة، ومقبرة

المركز الجامعي تيبازة، العدد ٢، جوان ٢٠١٣، ص ٩١-١٠٤. الحاج الطاهر (زكية)، «الضريح الملكي الموريطاني بين الوصف العام والدراسة العلمية»، عن مجلة دفاتر البحوث العلمية، مجلة علمية محكمة تصدر عن المركز الجامعي تيبازة، العدد ٢، جوان ٢٠١٣، ص ١٢٤-١٣٢. بوذراع (سفيان)، «دراسة معمارية فنية مقارنة بين ضريحي المدغاسن والضريح الملكي الموريطاني»، عن مجلة دفاتر البحوث العلمية، مجلة علمية محكمة تصدر عن المركز الجامعي تيبازة، العدد ٢، جوان ٢٠١٣، ص ٢٣٩-٢٤٠.

^{٦٥} - الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، العمارة الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٣٩-٢٤٠. انظر ايضا: سامح (كمال الدين)، المرجع السابق، ص ٩-١٠. عطية (فاضية عطية مصطفى)، عمائر القاهرة الجنائزية خلال القرن ١٣هـ/١٩م دراسة أثرية معمارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآثار الإسلامية، قسم الآثار الإسلامية كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠٠٣/١٤٢٤، ص ٥٣١-٥٣٣.

^{٦٦} - كمال الدين (سامح)، المرجع السابق، ص ٩-١٠. انظر ايضا: MARÇAIS.G, op-cit, P300-301.

السلطان مراد الثاني وتربة ابراهيم باشا في فوتجا وغيرها، وفي مصر أمثلة عديدة منها قبة الأمير أغا كوكليان (١٠٩٤هـ/١٦٣٩م) ومدفن أمنة قادن (١١٧٠هـ/١٧٥٠م)^(٦٧).

ويظهر التميز في أن كلا من القبنتين الضريحيتين بالجامع الأخضر والمدرسة الكتانية غير مفتوحتين من جوانبهما الأربع، لكونهما تقعان في أطراف المعالم الملحقة بهما أو المجاورة لهما، حيث جاءت القبة الضريحية بالجامع الأخضر تقع بالركن الجنوبي الغربي يحيط بها الجدار الخارجي من جهتين وأضيف لها جدار يفصلها عن الغرفة التي تتقدمها بالضلع الشمالي، ولم يتبق منها مفتوحا سوى الضلع الشرقي المطل على المسجد، أما القبة الضريحية بمدرسة سيدي الكتاني فهي مسدودة من جهة واحدة والتي فيها يوجد الجدار الخلفي الخارجي للمدرسة، بينما بقيت جهاتها الثلاث المتبقية مفتوحة.

في حين تمثل القبة الضريحية بمقبرة سيدي مبارك مثالا للأضرحة المفتوحة، حيث تقوم القبة فوق أربع دعائم ذات مسقط مربع تعلوها عقود نصف دائرية تليها حنايا ركنية تسمح بتشكيل قبة نصف كروية، في حين يستمر سقف المقبرة بالأقبية في باقي الأجزاء.

ومن مظاهر التميز أيضا عن الطراز التركي للقباب المفتوحة هو وجود ملاحق إضافية للقبة، ففي القبة الضريحية بالجامع الأخضر ألحقت غرفة تتقدم القبة يربط بينهما باب معقود في وسط الجدار المشترك، أما القبة الضريحية بمدرسة سيدي الكتاني فنجد علي يمين ويسار القبة مساحتان مستطيلتان يعلوهما قبو نصف دائري، وإلى الجهة الجنوبية ألحقت بها غرفة.

وقد كانت ظاهرة إلحاق بعض الأجزاء المعمارية بالقباب الضريحية -بغض النظر عن كونها مفتوحة أو غير مفتوحة- معروفة في أمثلة عديدة في المغرب والمشرق، ففي الجزائر نرى لها أمثلة ترجع إلى فترة سابقة للعصر العثماني كما هو الحال في قبة سيدي ابراهيم (٧٦٥هـ/١٣٦٤م) وضريح سيدي أبي مدين^(٦٨)، وفي العصر العثماني نذكر ضريح سيدي عبد الرحمن (أنظر المخطط رقم ٨) و ضريح سيدي

^{٦٧} - أوقطاي (أصلان أبا)، المرجع السابق، ص ٢١٦، ٢١٧. انظر أيضا: الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، العمارة الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٣٩-٢٤٠. عطية (فايدة عطية مصطفى)،

المرجع السابق، ص ٥٣١-٥٣٣. ARIK.O, op-cit, P137.

^{٦٨} - لعرج (عبد العزيز)، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٦-٣٧١. بوروية (رشيد)، الطراز الموحد، المرجع السابق، ص ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١. انظر أيضا: BOURUIBA.R, op-cit, P192- 195, 279-281. MARÇAIS.G, op-cit, P301.

محمد (١٢٠٦هـ/١٧٩١م) بمدينة الجزائر^(٦٩) وضريح الباي مصطفى بوشلاغم (١٠٩٨ ١١٤٦هـ/١٦٨٦-١٧٣٤م) بمستغانم (١١٢٦هـ/١٧١٤م)^(٧٠).

أما بالنسبة للمشرق فمن أمثلتها بمصر نذكر قبة علاء الدين كجك (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) التي يتقدم ضلعها القبلي إيوان، وألحقت مساحة مستطيلة مسقفة بسقف خشبي بقبة اولجاي اليوسفي تتفتح على مربع القبة بباب، وقبة الأمير يوسف آغا الحبشي (١٠١٣هـ/١٦٠٤م)، وقبة الأمير كتحذا (١١٦٧هـ/١٧٥٣م)^(٧١).

ومما تتميز به هذه الأضرحة المفتوحة بانها أضرحة عائلية، ففي القبة الضريحية بالجامع الأخضر دفن مؤسس الجامع وابنه و حفيده، بينما دفن في القبة الضريحية بالمدرسة الكتانية صالح باي وأفراد من عائلته، ودفن في القبة الضريحية بمقبرة خنقة سيدي ناجي عدد من أفراد عائلة سيدي مبارك.

وقد عرفت بلاد المغرب والأندلس المدافن العائلية منذ القرون الأولى، حيث تجمعت بعض المدافن بجوار القصور مثل روضة قصر قرطبة، و روضة قصر الحمراء وروضة قصر اشبيلية، ومن الأمثلة على هذا النوع بالمغرب الأقصى المقبرة الملكية المرينية بسلا والتي كانت تتشكل من أربع قباب ضريحية ومسجدين، ومقبرة السعديين بمراكش^(٧٢)، وبالجزائر نشأت عدة مقابر عائلية على غرار مقبرة سيدي أبي الحسن بتلمسان، ومقبرة سلاطين بني زيان بجوار مسجد سيدي ابراهيم، ومقبرة سيدي عبد الرحمن بالجزائر، ومقبرة آل الفكون بقسنطينة^(٧٣).

و ترجع ظاهرة القبور المجمع في مدافن خاصة الى حضارات سابقة للإسلام على غرار ما كان شائعا في العصر الفرعوني، وفي الحضارة الإسلامية كان ظهورها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي دفن في حجرة عائشة رضي الله عنها ثم دفن الى جواره الخليفة ابو بكر وعمر بن الخطاب^(٧٤)، ومن ثم انتشرت هذه الظاهرة وتعددت القبور داخل قبة واحدة وقد يلحق مدفن بالقبة الضريحية الأم، أو تبني مجموعة من القباب تدفن فيها أفراد العائلة على غرار ما كان شائعا في

^{٦٩} - بين بلة (خيرة)، المرجع السابق، ص ١٥٨-١٦٠.

^{٧٠} - بلجوزي (بو عبد الله)، دراسة أثرية لنماذج من العمارة العثمانية في مدينة مستغانم، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص ٥٤-٥٥.

^{٧١} - عفيفي (محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ص ٤٧٠-٤٧١.

^{٧٢} - ابو رحاب (محمد السيد محمد)، المرجع السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣. أنظر أيضا: MARÇAIS.G, op-cit, P301. ROUSSEAU.G, «Descriptions du Cimetière et des Qoubbas», in : Le Mausolée des Princes Sa'diens à Marrakech, Paris, 1925, PXIII-XXII.

^{٧٣} - مزوز (عبد الحق)، المرجع السابق، ص ٢٧.

^{٧٤} - عفيفي (محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ص ٥٠٠-٥٠٢.

مختلف أنحاء العالم الإسلامي مثل ما هو الحال في مدفن سليمان آغا الحنفي (١٢٠٦هـ/١٧٩٢م) ومدفن الأسرة التيمورية (١٢٣١هـ/١٨١٦م)، كما توجد له أمثلة بالهند مثل ضريح ميرزا عزيزا كوكلتاس (١٦٢٣-١٦٢٤م)، والمشكل من مساحة مربعة تعلوها ٢٥ قبة يوجد في أسفل كل قبة منها قبر^(٧٥).

ومما تتميز به الأضرحة المدروسة خلو الكثير منها من عنصر **المحراب**، فيما عدا ضريح سيدي عبدالرحمن (أنظر الصورة رقم ٨) وضريح سيدي أحمد بمدينة الجزائر، وضريح سيدي ابراهيم بن التومي بعنابة والذي يبدو أن محرابه تم اضافته بعدما تحول الضريح الى مسجد، وقد كانت ظاهرة خلو الأضرحة من المحاريب معروفة في المغرب والمشرق، ففي المغرب نجدها في كل من قبة سيدي ابراهيم (٧٦٥هـ/١٣٦٤م) وضريح سيدي أبي مدين بنلمسان^(٧٦)، وضريح الباي مصطفى بوشلاغم (١٠٩٨-١١٤٦هـ/١٦٨٦-١٧٣٤م) بمستغانم (١١٢٦هـ/١٧١٤م)^(٧٧).

وفي مصر يعود هذا الشكل من الأضرحة الى العهد الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) مثلما هو الحال في القباب السبع المؤرخة بسنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م فيما عدا واحدة منها^(٧٨)، واستمر هذا التقليد خلال العهد المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) الذي بلغ فيه عدد القباب الخالية من المحاريب أربعة عشر قبة منها قبة احمد المهمندار (٧٢٥هـ/١٣٢٤م) وقبة شيخو (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، وقبة السلطان برسباي بالصاغة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، وفي العهد العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/١٥١٧-١٨٠٥م) عدة أمثلة منها قبة جاهين الخلوتي (٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، والقبة الملحقة بجامع محمد قرا باشا (١١١٣هـ/١٧٠١م)، وقبة الشيخ رمضان (١١٧٥هـ/١٧٦١م)^(٧٩).

^{٧٥} - عطية (فادية عطية مصطفى)، المرجع السابق، ص ٥٤٣-٥٤٤. انظر ايضا: محمد علي (احمد رجب)، تاريخ وعمارة المزارات والأضرحة الأثرية الإسلامية في الهند، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٥٥-١٥٧.

^{٧٦} - لرج (عبد العزيز)، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٩-٣٧١. انظر ايضا: BOURUIBA.R, op-cit, P192-195, 279-281. MARÇAIS.G, op-cit, P301.

^{٧٧} - بلجوزي (بوعبد الله)، المرجع السابق، ص ٥٤-٥٥.

^{٧٨} - يوسف (محمود مرسي مرسي)، العماثر الإسلامية الدينية والمدنية الباقية في مدينة دمشق خلال العهدين الزنكي والأيوبي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠٠٢/١٤٢٣، ص ٢٥٦.

^{٧٩} - عفيفي (محمد ناصر محمد)، المرجع السابق، ص ٤٦٢-٤٦٣.

كما كانت بدمشق معظم التربة خالية من المحراب بداية من العهد الزنكي (٥٤٩-٥٦٩هـ/١١٥٤-١١٧٤م)، ومن أمثلتها التربة النجمية (٥٤٩-٥٦١هـ/١١٥٤-١١٦٥م) والتربة الخاتونية (٥٧٧هـ/١١٨١م)^(٨٠).

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن القول بأن الأضرحة بالجزائر خلال العهد العثماني شهدت خلال العهد العثماني انتشارا واسعا غير مسبوق وربما يرجع الأمر إلى التغيرات التي شهدتها المنطقة بعد الدخول العثماني، وانتشار الزوايا والصوفية، فضلا عن الاهتمام البالغ الذي أولاه الحكام لهذا النوع من العمائر.

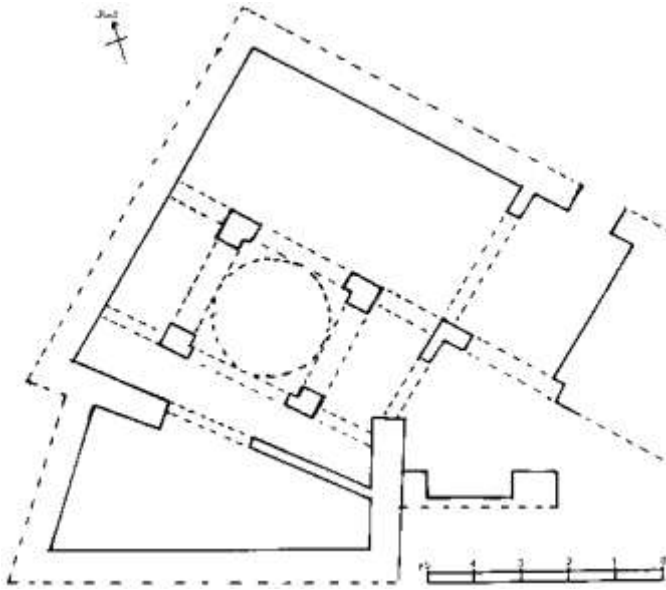
أما من الناحية التخطيطية فيظهر بأن الأضرحة بالجزائر خلال العهد العثماني عرفت أربعة أنماط، تتمثل في النمط المربع تعلوه قبة، والنمط الدائري تعلوه قبة، والنمط المفتوح تعلوه قبة، وقد تكون هذه الأضرحة ملحقة بمسجد أو زاوية أو مدرسة أو تكون مستقلة.

ومن خلال هذه الأنماط يبدو ان الأضرحة بالجزائر خلال العهد العثماني شهدت استمرار التقاليد المعمارية التخطيطية التي كانت معروفة قبل العهد العثماني، كالنمط المربع والنمط المفتوح، إلا أن أهم ميزة لم نجد لها مثالا قبل العهد العثماني هو النمط الدائري تعلوه قبة، وهو نمط قد يكون من الأنماط الفريدة ليس في الجزائر فقط وإنما في بلاد المغرب وقد تكون في العالم الإسلامي كله، وقد اشرنا إلى أن الأصول التخطيطية لهذا النمط ربما تكون متأثرا بالنمط التخطيطي للأضرحة التي كانت معهودة في شمال إفريقيا خلال فترات ما قبل التاريخ والفترات القديمة.

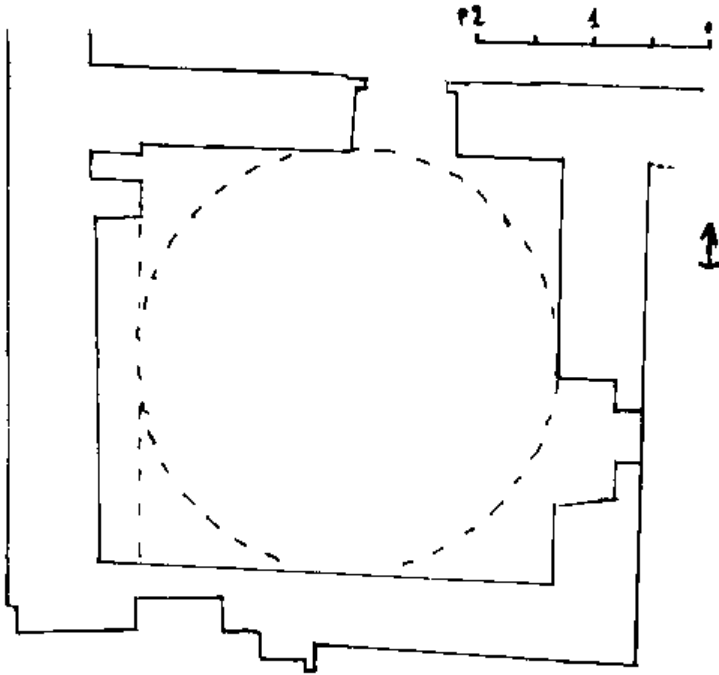
وقد لا يظهر التأثير العثماني في الأضرحة بالجزائر إلا في دخول بعض العناصر المعمارية والفنية وتراكيب القبور وشواهدها، التي شهدت على عكس ما كان معهودا دخول الشواهد ذات العمائم، فضلا عن استخدام الرخام في تراكيب القبور والشواهد وزخرفتها بزخارف متنوعة نباتية وهندسية ورمزية وكتابية، وهو الجانب الذي أثرنا التطرق إليه في دراسة لاحقة لما لها من أهمية.

وإلى جانب الاهتمام بزخرفة تراكيب وشواهد القبور اهتم الفنان بزخرفة الأضرحة بزخارف جصية وبلاطات خزفية التي تعد من أجمل أمثلتها ما نراه في ضريح سيدي عبدالرحمن بمدينة الجزائر، وهي ظاهرة دخلت مع العثمانيين إلى الجزائر.

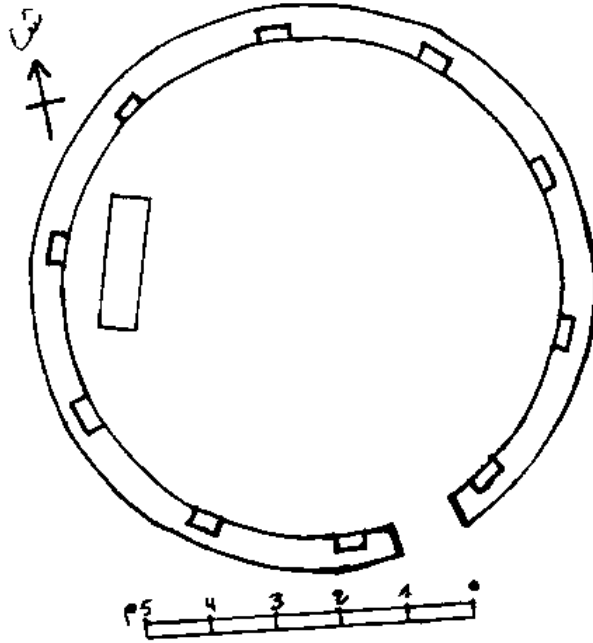
^(٨٠) - يوسف (محمود مرسي مرسي)، المرجع السابق، ص ٢٥٥-٢٥٦.



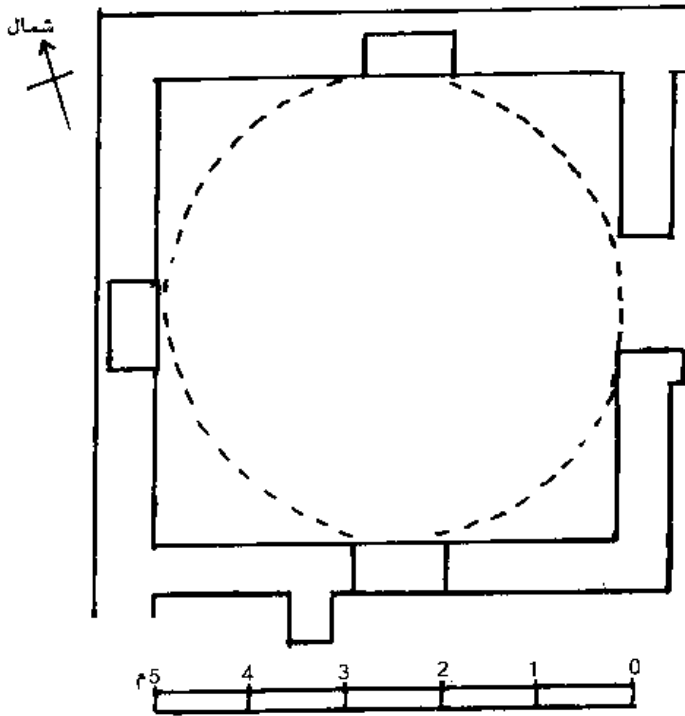
المخطط ١: مخطط مقبرة سيدي مبارك (عمل الباحث)



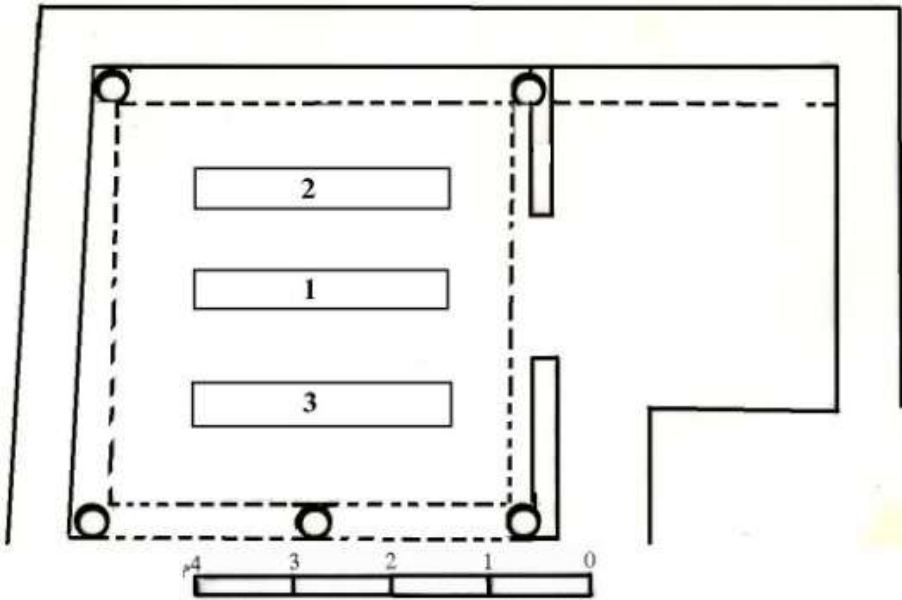
المخطط ٢: مخطط ضريح سيدي المبارك (عمل الباحث)



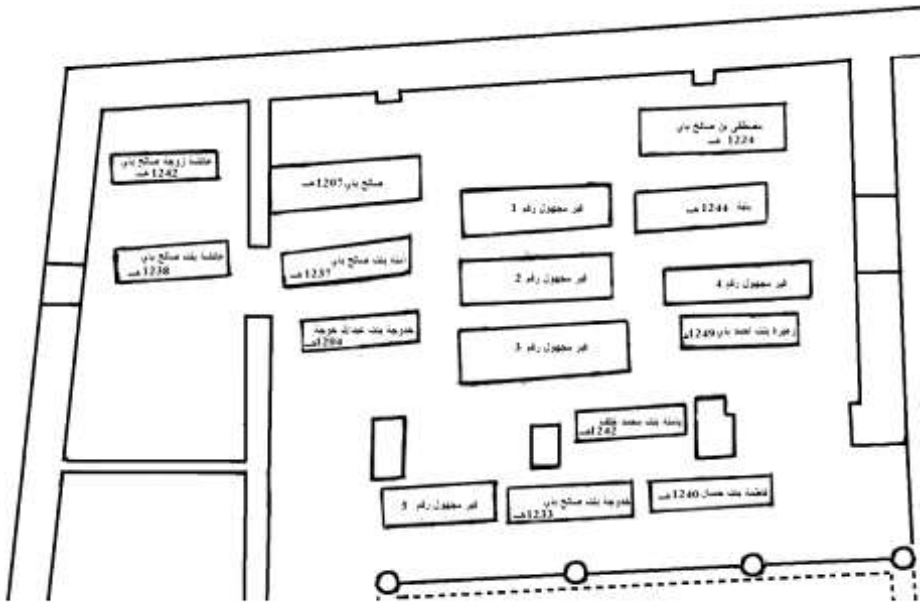
المخطط ٣: مخطط ضريح سيدي السعد (عمل الباحث)



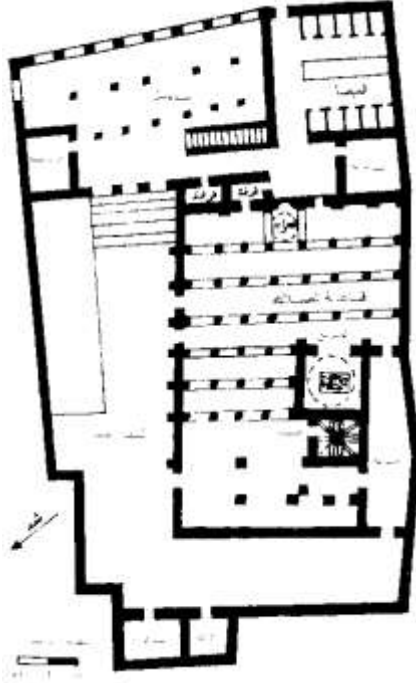
المخطط ٤: مخطط ضريح الزاوية الحسينية (عمل الباحث)



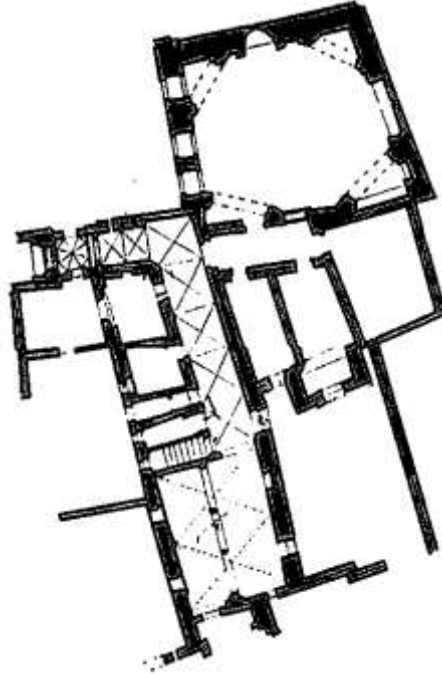
المخطط ٥: مخطط القبّة الضريحيّ الضريحيّة بسيدّي الكتانيّ (عمل الباحث)



الشكل ٦: مخطط القبّة للجامع الأخضر (عمل الباحث)



المخطط ٧: مخطط جامع سيدي عقبة يظهر فيه موقع الضريح (عنى شهبي)



المخطط ٨: مخطط ضريح سيدي عبدالرحمن وملحقته (عن ابن بلة)



الصورة ١: منظر خارجي لضريح سيدي ابراهيم بن التومي



الصورة ٢: منظر داخلي لمقبرة سيدي مبارك



الصورة ٣: ضريح سيدي المبارك



الصورة ٤: منظر خارجي لضريح سيدي السعد



الصورة ٥: منظر خارجي لضريح ثلاثة أسود بميلة



الصورة ٦: قبور القبة الضريحية للجامع الأخضر.



الصورة ٧: قبور القبة الضريحية لمقبرة صالح باي



الصورة ٨: منظر داخلي لضريح سيدي عبدالرحمن

The shrines of Algeria during the Ottoman period

Prof. Abdelkader DAHDOUH

Abstract:

During the ottoman era many mausoleum have been constructed in Algeria. This monuments still conserve its architecture art and design. Through these vestiges many design patterns belonging to the ottoman era in Algeria can be identified. Such as the square type with a dome on the top of it and the circletype with a dome and the open type supported with pillars with columns on top and a dome. The mausoleum can be consisted with annexes such as SidiAbderahman Mausoleum in Algiers that includes a mosque with a minaret as well as diverse architecture components such as the domes and its ornaments.

We would like to clarify these aspects through this paper to demonstrate the architecture types and the artistic characteristics of the mausoleums in Algeria during the ottoman era compared to the mausoleum in the Islamic world.